محطات من تجربتي في التعلم والتعليم

لينا موسى الشمالي

المعلمة لينا الشمالي.

أذكر أنني في مرحلة الطفولة (صف بستان، تمهيدي) كنت متشجعة ومتحمسة جداً للمدرسة، وكان أول يوم مريحاً جداً، وشعرت بالتميز فيه؛ لأن المعلمة كانت خالتي آنذاك، وعدت معها إلى المنزل، وكانت تشجعني باستمرار في الجلسات العائلية.

وعندما انتقلت إلى الصف الأول في مدرسة أخرى شعرت بالغربة، ولم تعجبني المدرسة أبداً، وبدأ الخوف يسيطر علي عندما عرّفنا مدير المدرسة على نفسه، وهو يحمل بيده عصا كبيرة، ويسرد التعليمات بصوت عال ومخيف، وأخذ يضرب بالعصا عن جنب وطرف، وزاد التوتر لدي عندما دخلنا إلى الصف الأول، وحضرت المعلمة وقامت بترتيب أماكن جلوسنا، ووضعت بنت بجانب ولد، قائلة للمعلمة التي جاءت لتشاهد صفنا: «إن هذا أفضل حل لكي يهدأ الصف»، لم أرضَ بالجلوس بجانب ولد، ولكنها أجبرتني على ذلك، لم أتفاعل مع المعلمة أبداً؛ لأنها كانت تعاقب من يخطئ بالضرب، وكان أكثر ما يحرجني هو ضربي أمام الطلاب الذكور فقط؛ لأنهم كانوا أبناء حارتي، وأنا البنت الوحيدة، وكانوا ينقلون ما حدث في الصف إلى الحارة، ويسخرون مني، ما كان يزيد خجلي ويمنعني من اللعب خارج البيت أيضاً.

ومن المواقف المضحكة أن الطلاب كانوا يقولون لي إنني أحب الطالب الذي يجلس بجانبي في الصف، وإننا سنتزوج، وهو يقول «أنا أحبها وبدي أتزوجها»، وأنا كنت أذهب باكية إلى أمي.

في الصف الثاني انتقلت إلى مدرسة أخرى كانت للإناث فقط، وكانت أمي شرحت للمدرسات سبب نقلي إلى هذه المدرسة، فرحبت بي المعلمة بوجه حسن وأحبتني وأنا أحببتها كثيراً، وعرفتني على طالبات الصف بالكلمات التالية التي ما زالت في ذاكرتي، وهي: «جاءت طالبة جديدة انظروا إليها ما أحلاها وما أرتبها، أنا حبيتها، مين حبها مثلي؟». كانت عيون الطالبات كلها شوق وحب للتعرف عليّ، وشاهدت التعجب الذي تركه صوت المعلمة في وجوه الطالبات، وتفوقت في دراستي، وكانت عندما تنادي على اسمي لاستلام نتيجتي في الامتحان أو الإملاء، كانت تحملني وتلف بي، ما كان يزيد من إقبالي على الدراسة، وحرصي أن أكون عند حسن ظن المعلمة. واستمريت في المدرسة حتى الصف السادس، وبعدها انتقلت إلى مدرسة إعدادية، ووقتها كنا زميلات في سن المراهقة، وكثيرات مشاكل، ولكني كنت حريصة على أن أبقى متميزة، فشاركت في الإذاعة المدرسية، واختارتني المعلمة لأكون في لجنة النظام، وكان لها أثر كبير في تعزيز ثقتي بنفسي عندما أوكلت لي مراقبة طالبات المدرسة من الصف السابع حتى التوجيهي، وعندما كنت أشكي لها عن طالبة، كانت تواجهني بها،

وتقف معي دائماً أمام الطالبات، وتوجه لي الملاحظات بيننا، ما زاد محبة المعلمات لي من جهة، وكان إيجابياً بالنسبة لشخصيتي من جهة أخرى. أما السلبي، فهو كره الطالبات لي، والنظر لي بطريقة غير محببة، أذكر همسهن عني بأني «شايفة حالي»، وهذه الفكرة والنظرة استمرت معهن حتى بعد تخرجي من المدرسة.

كنت بهذه الفترة أحلم أن أكون محامية، لأنني كنت أشعر بقوة شخصيتي، وأنني قادرة على أن أدافع عن الآخرين، ولدي الجرأة لأن أقف وأتحدث أمام الجميع.

تأثرت بهذه المعلمة كثيراً؛ إذ في حصصها كانت تنوع في أساليبها وتصاحبنا في التعامل، وتعطي وقتاً للمزح في الحصة، وترجع لضبط الحصة بحركات في وجهها فقط، وتغيّر نبرة الصوت، كنت كلما عدت إلى البيت قلدتها.

أول يوم في التوجيهي كان يوم خطوبتي، وغضبت المعلمات على هذا القرار، وقلن لي إني سأتراجع في دروسي، ولكني اجتهدت لأثبت لهن العكس، وفعلا تفوقت في المدرسة، ولكن في الامتحان الوزاري لم يحالفني الحظ بالمعدل الذي كنت أتطلع إلى الحصول عليه، وعندما نجحت وأصبحت قريبة من تحقيق حلمي، بدأت العقبات والصعوبات في حياتي، عندما رفض جدي أبو والدي التحاقي بالجامعة، عندها شعرت أن كل الأبواب توصد في وجهي، وقال: «إن البنت آخرتها للمطبخ، وإن على خطيبي تعليمي»، في الوقت الذي كانت ظروفه صعبة. ومما زاد حزني، هو أن جدي من أغنى رجال البلد، وأنه في وقتها كان يتبنى طالبات في الجامعة، ويوفر لهن السكن وقسط الجامعة ومصروفهن الشخصي، ولكن أمي كانت معي بأن علي أن أتعلم وأقنعتني بأن الأفضل لي أن أدرس التربية لأصبح معلمة، وسردت لي مميزات المعلمة، وفعلاً أقنعتني، ولم أكن مكرهة على هذا التخصص، وهنا تغيرت شخصيتي، وأصبحت أكثر اعتماداً على نفسي.

عندما قابلت شخصاً كان يفتتح روضة، وقال لي إنه بحاجة إلى مساعدة لمعلمة للصف التمهيدي، وفعلاً ذهبت واشتغلت فيها بعد التوجيهي، ولم يكن لدي أي خبرة عن التعليم، إلا أنني ذاهبة للعب مع الأطفال، وكانت أكثر أيام ممتعة في حياتي، أحببت الأطفال، وكانوا متعاونين معي جداً، وكنا نفصل بين اللعب والجد، وأصبحت معلمة الصف صديقتي، وكانت تحصل معنا مواقف مضحكة كثيرة، بعدها تزوجت، وكنت قد أنهيت سنة أولى في الجامعة، وزوجي شجعني على أن استمر في التعليم، وأكملت دراستي الجامعية، وكانت فترة مرهقة جداً (بيت، جامعة، روضة). مع بداية السنة الرابعة، قررت أن أترك الروضة لما أصابني من ضغط.

وفي يوم من الأيام، وأنا ذاهبة إلى الجامعة، وكانت هناك مدرسة قريبة من بيتي، قلت في نفسي: لمَ لا أذهب وأقدم طلباً للعمل، فربما يبعثون في طلبي بعد أن أكون قد أنهيت الجامعة، ولكني كنت موفقة جداً في العمل، إذ كانوا بحاجة إلى معلمة للصف الأول، وقالت لي المديرة بعد المقابلة: داومي عندنا من الآن. وكان وضع المدرسة مختلفاً كثيراً عن الروضة، من نواحٍ عدة: المبنى، النظام، الإدارة، التعامل، التعليمات والقوانين، ما جعلني أوافق على العمل فيها.

بدأت من الفصل الدراسي الثاني، وكانت معي خبرة لا بأس بها في ضبط الصف والتعليم، وضعت كل ما بوسعي وصبري على الطلاب، كنت أخيّر الطلاب في ترتيب الحصة، وفي بعض الأحيان أعطيهم الحصة في الساحة. أحبني الطلاب وأهاليهم، وتفاجأت في العام القادم، بأن الأهل يشترطون على الإدارة وضع أبنائهم في شعبتي. سررت كثير وزادت ثقتي بنفسي، وفي كل مرة يشكرني الأهل للإدارة ولأصحاب المدرسة على تعليمي ومحبتي لأبنائهم، إذ كنت أعتمد في التعليم على نفسي، وأن يعود الطالب إلى البيت فاهماً الدرس، وحافظاً المحفوظات قبل أن أطلب التسميع. لم أقل يوماً إن هذا الطالب ذكي وهذا غبي، كنت أؤمن أن كل الطلاب بحاجة إلى تعليم الحروف، وبحاجة إلى الاهتمام، واستمريت 6 سنوات في تعليم الصفين الأول والثاني، وكنت أهتم بالإذاعة المدرسية، وحفلات المدرسة، وتدريب الطلاب على الفقرات، وتقديم الحفل، وفي حفل نهاية السنة حدثت مشكلة مع مديرة المدرسة، ما دعا صاحب المدرسة إلى تغيير الإدارة، واجتمع مع أولياء الأمور واقترح الجميع أن أكون المديرة. وفي العطلة، عقد صاحب المدرسة اجتماعاً، وناقشنا أمور المدرسة وأوضاعها بشكل عام، وأعطانا أوراقاً مثل الاستبيان لتعبئتها، وكانت بمثابة امتحان للمعلمات، لم أكن أعرف ذلك في وقتها، ولم يكن ببالي أن أكون مديرة يوماً ما، وبعدها اجتمع معي صاحب المدرسة بشكل خاص، وقال لي ما سبق وأن ذكرته، وقال إنه اختارني لأكون مديرة للمدرسة. في البداية رفضت، لكونها مسؤولية كبيرة ومرهقة جداً، ولكنه قالي لي: «معك وقت للتفكير»، وقال لي إنه سيقف معي ويساعدني، وعندما عدت إلى البيت، وقلت لأسرتي شجعني الجميع على القبول، وكانوا مسرورين بالمنصب الجديد، وبخاصة والدتي، وقالت لي جملة كان لها تأثير كبير على قبولي للإدارة وهي: «هذا نتاج دعواتي لك»، وإن هذا حلم حياتها، أما أنا فلم يعني لي المنصب شيئاً أبداً، بل كنت خائفة جداً من المسؤولية والأمانة الكبيرة، وكنت أقول في نفسي لماذا اختاروني؟ أنا لن أستطيع ذلك، ولكن في النهاية وافقت ضمن شروط معينة، إذ لم يكن الموضوع سهلاً أبداً بالنسبة لي، وكان يصيبني بالتوتر الشديد.

في البداية عقدت اجتماعاً مع المعلمات قبل دوام الطلاب، وأخذت المعلمات الموضوع بسخرية، ولم يتوقعن أن ذلك سيحصل؛ فأنا أصغر معلمة في المدرسة، وكنت المطيعة للمعلمات بتلبية احتياجاتهن، ولكن من خلال حديثي معهن بأني ما زلت الصديقة المعهودة لهن، وأن هدفنا واحد في المدرسة، وأنهن أفهم وأقدر مني بكثير، ولكل منا وظيفته، اتفقنا جميعاً على العمل سوية لتحقيق الهدف نفسه.

في السنة الأولى من الإدارة، لم يكن معي الوقت لأحلم بشكل مدرستي، والترتيبات التي ينبغي علي إعدادها، لكني كنت حريصة على أن أقدم واجباتي للتربية والتعليم، وأنا لا أخطئ ولا أتأخر عن تسليم أي ورقة طلبت مني. كانت تهمني التعليمات للمعلمات؛ كالتحضير وغيره من الأشياء الروتينية. بعدت عن الطلاب قليلاً، تغيرت نظرتي لهم دون قصد مني، ولكن ضغط العمل والمسؤوليات الكثيرة هي التي أثرت في، وحصل معي موقف مع أحد الطلاب جعلني أهدأ، وأعطاني سعة صدر أكبر، ولمت نفسي كثيراً على أن طالباً متميزاً من الطلاب الأوائل في المدرسة تراجع عن دراسته، وأصبح مشاكساً، لا يحل واجباته، ولم يستمع لكلام المعلمة، وإذ بالمعلمة طلبت منه الخروج إلى الإدارة، ولكنه رفض، ما دعاني إلى الذهاب إلى الصف، وطلبت منه الخروج لأتحدث إليه، ولكنه رفض وبشدة، ولم أتوقع ما قاله لي، على العلم أنه لم يحدث بيني وبينه أي موقف من قبل، قال لي: أنا أكرهك. وبخته المعلمة وقالت له: إنها مثل أمك، لا يجوز أن تقول هذا، فقال: فشر أن تكون مثل أمي، إنها مغرورة أصلاً، أنت من يوم ما صرت مديرة وأنت شايفة حالك، وبتخلي حالك معصبة على إيش! هذا ما قاله، كنت متوترة من ردة فعل الطالب، ولا أعرف ماذا أقول له. التزمت الصمت، ولكن المعلمات تجمعن لتوبيخه وطالبن بأن أوجه له إنذاراً، وأن يحضر ولي أمره، ولكني رفضت ذلك، وقلت لهن اتركنه، وقلت له: أريد أن أتحدث معك بيني وبينك، وذهبت معه إلى مكتب الإدارة، وجلسنا، وسألته عن سبب ما قاله، وسألته إذا كنت أغضبته في أي موقف، ولكنه قال لا.

قال: أنت عندما كنت معلمة كنت أحبك كثيراً، كنت عندما تلاقينا بالممر تبتسمي وتلعبي معنا، وتسألينني عن دروسي، وليس أنا فقط، من أقول هذا، وإنما جميع طلاب صفي يقولون هذا. قلت له إنني ما زلت كما كنت معلمة، لم أتغير، وما زلت أحبكم جميعاً، ولكن أنتم كبرتم، وأنا واثقة بكم، وأننا ما زلنا في بداية العام، وأنا لدي أعمال كثيرة، ولكن سنعوض ذلك في الأيام القادمة. تأسف الطالب على فعله، وطلب مني أن لا أخبر والديه بالقصة، ووافقت على طلبه.

في الفصل الثاني، وضعت خطة للمدرسة، وقسمت المهام التي كنت أعملها بنفسي على المعلمات، وشكلنا لجاناً مثل لجنة الصحة، ولجنة الإذاعة، ولجنة النظافة، واخترنا مجلساً لأولياء الأمور. قسَّمت وقتي بدقة أكبر، بحيث أطلع من المرشدة على مشاكل الطلاب، وأجلس مع الطلاب، والمعلمات، وأجري اجتماعات مع أولياء الأمور، وغيرها.

كنت أشعر وما زلت بأنه يجب علي التعلم أكثر، وتثقيف نفسي، فعملت مقابلات مع مديري مدارس في منطقتي، واطلعت على خططهم، وعلى طريقة تعامل المدير، ونظام المدارس.

في هذا الوقت، أخذت مع عدد من المعلمات دورة نظمتها جامعة القدس، وكانت تفريغاً نفسياً لنا، وخففت من أعباء العمل، أفادتنا كثيراً في التعرف على طبيعة بعضنا البعض، واختيار الطريقة المناسبة الخاصة بكل واحدة فينا. والجزء الآخر منها كان عن الصحة النفسية للطفل. كما شاركت في دورة حول الدراما في التعليم نظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وكنت في أمس الحاجة إلى هذه الدورة، لأنني كنت أريد مدرستي أن تكون بشكل مختلف ومميز عن المدارس الأخرى، وأن أحقق تعليماً أفضل، وثقافة أكثر منفعة وفائدة، وفعلاً هذا ما وجدته في هذه الدورة وبرنامجها المتكامل، فالدراما هي إنتاج معنى جديد للتعلم والتعليم.

مدرسة العودة المختلطة/العيزرية

المعلمة لينا الشمالي خلال مشاركتها في أحد لقاءات الدراما في التعليم مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.